

سفارات الشيخ إبراهيم الرياحي في النصف الاول من القرن التاسع عشر

بقلم : حمادي الساحلي

(1) علاقات الشيخ إبراهيم الرياحي بالدولة الحسينية

لقد عاصر الشيخ ابراهيم الرياحي (1767 - 1850) سبعة ملوك
حسينيين ، هم على التوالي :

- علي باي الثاني (حكم من 1759 الى 1777) .
- حمودة باشا بن علي باي الثاني (1777 - 1814) .
- عثمان بن علي باي الثاني (16 سبتمبر - 21 ديسمبر 1814) .
- محمود بن محمد الرشيد باي (1814 - 1824) .
- حسين باي الثاني بن محمود باي (1824 - 1835) .
- مصطفى باي بن محمود باي (1835 - 1837) .
- أحمد باي الأول بن مصطفى باي (1837 - 1855) .

وحظي بتقدير هؤلاء الأمراء ووزرائهم ورجال دولتهم ، منذ أن انتصب
للتدريس بجامع الزيتونة في أواخر القرن الثامن عشر الى أن وافته المنية سنة
1850 . وكان أبو الخيرات الوزير يوسف صاحب الطابع أول من اكتشف
مواهبه العلمية وساعده على تذليل الصعوبات المادية التي اعترضت سبيله في
أول عهده بالتدريس واضطرته الى التفكير في الهجرة . فقد أولاه خطة التوثيق

(العدالة) بتونس واشترى له داراً مجهزة بكلّ ما يلزم من المرافق وتكفل بنفقات زواجه . وما لبث أن استرعى انتباه الأمير حمودة باشا وخلفائه الذين تسابقوا الى تكريمه وتقليده أسمى المناصب الشرعية والدينية .

ففي سنة 1806 أجبره حمودة باشا على قبول خطة القضاء الشرعيّ بالعاصمة بعد شدة امتناعه . ولكنه سرعان ما فرّ الى زغوان حيث التجأ الى زاوية سيدي علي عزّوز ولم يرجع الى تونس إلّا بعد تعيين أستاذه الشيخ إسماعيل التميمي في تلك الخطة .

وفي سنة 1814 عينه نفس الأمير مدرّساً بالجامع الذي شيّده وزيره يوسف صاحب الطابع بحيّ الحلفاوين ، وشيخاً للمدرسة الملحقة به .

وفي سنة 1832 أولاه الأمير حسين باي الثاني أسمى خطة شرعية في البلاد أي رئاسة الدائرة المالكية بالمجلس الشرعي بالعاصمة ، بصفة « باش مفتي المالكية » أو « كبير أهل الشورى » .

وإثر وفاة الشيخ محمد بن عبد الكبير الشريف سنة 1839 اختاره المشير الأوّل أحمد باشا باي للاضطلاع بمهامّ إمام أوّل وخطيب بجامع الزيتونة ، وهو أوّل من جمع بين تلك الخطة وبين رئاسة الفتوى . ثم كلّفه نفس الأمير في سنة 1842 بخطة رسمية ثالثة ، وهي عضوية المجلس العلمي ، المعروف باسم « النظارة » والمكلّف بالإشراف على تنظيم التعليم بالجامع الأعظم .

وبحكم هذه الوظائف السامية ، استحكمت بين الشيخ إبراهيم الرياحي وبين معاصريه من الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة الحسينية ، علاقات المودة والتقدير المتبادل . وقد خصّص لمدحهم وتهنئتهم وراثتهم عدّة قصائد ، تمثل الجانب الأوفر من ديوانه (1) .

(1) نشر حفيده عمر الرياحي بعض تلك القصائد في كتابه « تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي » ، الذي طبع بتونس سنة 1320 هـ في جزأين .

(2) سفارته بالمغرب الأقصى :

وبالإضافة الى وظائفه الدينية والعلمية ، دُعِيَ الشيخ الى القيام بثلاث مهمّات رسمية بالخارج .

ففي سنة 1218 هـ (أوائل سنة 1804 م) ، اختاره الأمير حمودة باشا للقيام بمهمّة لدى سلطان المغرب مولاي سليمان بن محمّد (2) ، قصد طلب « الميرة » ، إثر احتباس الغيث وانتشار القحط في جميع أنحاء البلاد .

وقد سافر الى المغرب محمّلاً برسالة الى السلطان من إنشاء الشيخ عمر المحجوب ، قاضي الجماعة بتونس . ولما وصل الى مدينة فاس استقبله أعيانها وعلمائها بكلّ حفاوة وتبجيل . وحظي بالثول بن يدي مولاي سليمان وأنشده قصيدته التي نالت إعجاب الأدباء المغاربة :

[كامل]

إنّ عزّ من خير الأنام مزار فلنا بزورة نجله استبشار
أو ليس نور المصطفى بجبينه كالشمس يظهر نورها الأقطار
فأشّف الغليل بقربه فلطالما شطّ المزار وعافت الأقدار
واحفظ جفونك من سناه فإنّه يبريقه تتخطّف الابصار

وهي قصيدة طويلة تتضمّن 59 بيتا (3) .

وقد لبّى السلطان طلبه وقضى حاجته على أحسن ما يرام . وبعد رجوعه الى تونس بقي الشيخ على اتصال به عن طريق المراسلة ، وقد مدحه بعدّة قصائد وتلقّى منه رسالة مصحوبة بقصيدة من نظم بعض رجال حاشيته ، جاء فيها بالخصوص : (4) .

(2) الزركلي ، الأعلام ، ج 3 ، ص 197 .

(3) محمد السنوسي ، « مسامرات الظريف بحسن التعريف » ، الجزء الاول ، تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، ص 163 ، 164 ، 165 .

(4) نفس المرجع ، ص 173 .

[كامل]

يا أهل تُونُسْ حَزْتُمْ شَرْفًا بَمَا أَبْدَيْتُمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ
يَكْفِيكُمْ أَنْ فِيكُمْ هَذَا الَّذِي حَلَّتْ بِبَلَاغَتِهِ مَحَلَّ كَمَالٍ
حَتَّى غَدَتْ أَمْدَاحُهُ مَا بَيْنَنَا تُقَرَّى لَدَى الْغَدَوَاتِ وَالْأَصَالِ
فَلَرْبَمَا أَدَّى الْبَعِيدَ بِأَرْضِهِ حَقًّا وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى تَرْحَالِ

وَاتَّصَلَ أَثْنَاءَ إِقَامَتِهِ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ مِنْ رِجَالِ الْعِلْمِ وَلِأَدَبٍ ، وَفِي
مَقْدَمَتِهِمُ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ الْقَرَشِيَّ وَالْأَدِيبَ مُحَمَّدَ بْنَ الْفَقِيهِ (5) وَتَبَادَلَ مَعَهُمُ
الْقِصَائِدَ . كَمَا اجْتَمَعَ بِالْوَلِيِّ الصَّالِحِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ التَّجَانِيَّ وَأَخَذَ عَنْهُ طَرِيقَتَهُ
وَنَشَرَهَا فِيهَا بَعْدَ فِي تُونُسَ .

وَبَعْدَمَا أَنْهَى الْمَبْعُوثُ التُّونِسِيَّ مِهْمَتَهُ ، قَفَلَ رَاجِعًا إِلَى بِلَادِهِ ، بَعْدَمَا أَنَّ
مُجْمُوعَةً مِنَ السَّفِينِ قَدْ أَبْحَرَتْ مِنَ الْمَغْرِبِ فِي اتِّجَاهِ تُونُسَ مُحْمَلَةً بِالْحُبُوبِ .

(3) رِئَاسَتُهُ لَوْفِدِ الْحَجِيجِ التُّونِسِيِّينَ :

وَفِي سَنَةِ 1836 اخْتَارَ الْأَمِيرُ مُصْطَفَى بَايَ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ الرِّيَاحِيَّ
الَّذِي عُيِّنَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَرْبَعِ سِنَوَاتٍ فِي مَنْصَبِ « بَاشِ مَفْتِي الْمَالِكِيَّةِ » ، لِرِئَاسَةِ
وَفْدِ الْحَجِيجِ التُّونِسِيِّينَ وَحَمَلَ عَائِدَاتِ أَوْقَافِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ بِتُونُسَ
(الْصَّرَّةِ) إِلَى مَسْتَحَقِّهَا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ وَالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ . وَكَلَّفَهُ عِلَاقَةً عَلَى ذَلِكَ
بِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ نِيَابَةً عَنْهُ (6) وَزِيَارَةِ الْحَرَمِ النَّبَوِيِّ . وَأَرْسَلَ مَعَهُ مَكْتُوبًا مِنْ
إِنْشَاءِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الضِّيَافِ لِإِلْقَائِهِ فِي الرُّوْضَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَقَدْ
جَاءَ فِيهِ بِالْخُصُوصِ مَا يَلِي : (7) .

« وَهَذَا عَالَمُ أَمَّتِكَ فِي هَذَا الْمَضَرِّ ، وَشَيْخُ أَهْلِ الْعَصْرِ ، الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ
الرِّيَاحِي ، أَنْبَتُهُ يَحْجُجُ الْبَيْتَ عَنِّي ، وَيَحْمِلُ لِرَوْضَتِكَ هَذَا الْمَكْتُوبَ مِنِّي ، وَأَنْتَ

(5) تَعْطِيرُ النَّوَاحِي ، ج 1 ، ص 32 .

(6) لَقَدْ سَبَقَ أَنَّ أَدَّى الشَّيْخَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى سَنَةِ 1241 هـ (1826 م) .

(7) الْإِتْحَافُ ، ج 3 ، ص 213 .

قلت : « الأعمال بالنيّات » ، واللّه المطلع على الخفيّات . ووافق سفره إثر ختمه لتفسير كلام اللّه معجزتك وبعثنا معه حقوق أهل الحرمين المرعيّة ، من تونس المحميّة ، ورسول اللّه خير بأسباب هذا التأخير .
وقد غادر الشيخ ميناء حلق الوادي يوم 2 رمضان المعظم سنة 1252 (11 ديسمبر 1836) ، على متن المركب الذي وضعه الباي على ذمّته ، ثم نزل بالإسكندريّة وتوجه رأساً الى القاهرة حيث أقام حوالي خمسة عشر يوماً واجتمع بكبار العلماء المصريين الذين تسابقوا الى الترحيب به وتكريمه واقترحوا عليه القاء بعض الدّروس بالجامع الأزهر فاستجاب لطلبهم وأعجبوا بفصاحته وتبحّره في العلم .

وإثر ذلك توجه الى الحجاز صحبة ركب الحجيج المصريين وبقي المركب الحسيني في انتظاره بالإسكندرية . وبعدما أدى مناسكه بمكة المكرمة نيابةً عن الأمير مصطفى باي ، تحوّل الى المدينة المنورة لزيارة الحرم النبوي الشريف . وما إن وصل الى باب السلام حتى خاطب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) بقصيدته التي اشتكى فيها من تلميذه الشيخ محسن البحري بن عبد الستار (8) قائلاً :

[طويل]

إليك رسول اللّه جئتُ من البعد	أبثّك ما في القلب من شدّة الوجد
بغى وطفى مستكبرٌ متشبّثٌ	بوهم يقود الناس للخطأ المُردي
وصار رقيّاً مبغضاً متجسّساً	يقصر طول اللّيل بالردّ والنقد
وعبدك ، يا خير البريّة ، غافلٌ	ظننتُ به خيراً لِمَا مرّ من ودّي

وختم القصيدة بقوله :

فهذا ، رسول اللّه ، إجمالٌ مكرّه	وتفصيلُهُ يا سيّدي ليس في جُهدي
ألا يا رسول اللّه هذا تذليّ	إليك ، فخذُ بالثّار يا منتهى قصدي (9)

(8) قبل بضعة أيام من سفر الشيخ الى البقاع المقدسة ، نشب خلاف حادّ بينه وبين تلميذه الشيخ محمد البحري القاضي المالكي بالعاصمة ، حول مسألة فقهية تتعلق بالحضانة ، وذلك بحضور الباي الذي انتصر لرأي القاضي ، الانحاف ، 215/3 - 214 .

(9) نفس المرجع ، 215/3 - 216 .

وفي سفرته هذه الى البقاع المقدّسة اجتمع الشيخ إبراهيم الرياحي بكبار علماء الحرمين الشريفين الذين أكرموه وأجازوه.

وبعد إتمام مناسكه عاد إلى الإسكندرية حيث وجد في انتظاره المركب الحسيني الذي رجع به الى تونس يوم 13 رجب سنة 1853 (13 أكتوبر 1837)، بعد ثلاثة أيام من وفاة الأمير مصطفى باي وارتقاء ابنه أحمد باي الأوّل الى العرش .

4) سفارته بدار الخلافة العثمانية :

في سنة 1838 قدم الى تونس مبعوث من السلطان العثماني محمود خان لتهنئة الأمير الحسيني الجديد ومطالبته بتسديد الضريبة الموظّفة على بلاده ، باعتبارها تابعة للخلافة العثمانية ، والتي تبلغ قيمتها حسب بعض المراجع أربعة ملايين . . . ريال (10) . فاستعظم أحمد باي هذا المبلغ ورأى أن الدولة التونسية عاجزة عن دفعه ، لا سيما وهي مقدمة على اجراء إصلاحات باهظة التكاليف . وأشار عليه وزيره مصطفى صاحب الطابع بأن يطلب إعفاء الإيالة التونسية من هذه الضريبة التي لا مبرّر لها ، « وأن يكون ذلك بواسطة شيخ العصر ، وبركة المصر ، أبي إسحاق إبراهيم الرياحي » (11) . وقد قبل الشيخ القيام بهذه المهمة الدقيقة وسافر الى الأستانة يوم 30 جوان 1838 مصحوباً بالكاتب محمود بوخريص ومحمّلاً برسالة الى السلطان محمود خان من إنشاء المؤرخ أحمد بن أبي الضياف . وهي أوّل رسالة محرّرة باللغة العربية يوجّهها باي تونس الى الدولة العثمانية . لأنّ الملوك الحسينيين كانوا قبل ذلك يرسلون الباب العالي باللسان التركي . وقد أمر أحمد باي كاتبه بتحرير ذلك الخطاب باللغة العربية ، « متعلّلاً بأنه لا يضع ختمه إلا على ما يفهم خصائص تركيبه » (12) .

(10) الصادق الزمري ، « أعلام تونسيّون » ، ص 54 .

(11) الإنخاف ، 19/4 - (12) نفس المرجع .

ولما وصل الشيخ الى الأستانة ، خصّته السّلط التركيّة باستقبال حارّ ، وحظي برعاية وتقدير كبار رجال الدّولة ، وفي طليعتهم الصّدر الأعظم مصطفى رشيد باشا ، وقد اجتمع به ومدحه بقصيدة ، يقول في مطلعها : (13) .

[كامل]

الصّدر الأعظم مقصد المتوسّل وهو المؤمّل في القضاء المنزل
ولذاك من أقصى البلاد أتيته للفوز منه ببرء داء معضل
ومنها :

أشفع لنا فيما دها ترشيش(14) من إلزامها غرم الخراج المثقل
الفقر يمنعها وما تخشاه من شرّ الحوادث في الزّمان المقبل
كما اجتمع بشيخ الإسلام أحمد عارف (15) واستحكمت بينهما صلات
الودّ وتبادلا المراسلات شعراً ونثراً .

وحظي بالثول بين يدي السلطان محمود ومدحه بقصيدته
المشهورة : (16) .

[بسيط]

العزّ بالله للسلطان محمود
خليفة الله ما أعلاه من شبه
من آل عثمان سادات الملوك ومن
سادوا الأنام وشادوا الدين وافتتحوا
أبن السلاطين محمود فمحمود
بآدم ونبيّ الله داوود
جاؤوا كعقد من الياقوت منضود
من كلّ ما فيه خير كلّ مسدود

(13) مسامرات الظريف ، 201/1 - 202 .

(14) ترشيش : أي تونس .

(15) الزركلي ، الاعلام ، 138/1 .

(16) مسامرات الظريف ، 198/1 - 199 .

ثم أنشده قصيدة ثانية ، أعرب فيها بصريح العبارة عن الغرض من زيارته الى دار الخلافة ، قائلاً بالخصوص :

[طويل]

أتيتك ضيفاً مستغيثاً وشأنكم إغاثة لطفان وإن كرم الضيف
توالى علينا الضعف من كل جانب وما زال ذاك الضعف يتبعه ضعف
فجئناك نبغي العفو واللفظ والرضى وهل من سواك العفو يُطلب واللفظ
فعيشة من ترضى عليه هنيئة وكيف لعيش دون عفوك أن يصفو
الى آخر القصيدة التي تشتمل على 32 بيتاً (17) .

وقد تكللت مساعي السفير التونسي بالنجاح ، حيث قرّر السلطان إعفاء الإيالة التونسية ممّا عيّنه لها من الخراج السنوي ، إلى أن يأتي ما يخالف ذلك .

ورجع الشيخ إبراهيم الرياحي إلى تونس في أوائل أكتوبر 1838 واستقبل بكل حفاوة وتبجيل .

(5) وفاته (1266 هـ - 1850 م)

واستمرّ الشيخ في الاضطلاع بمهامّه الدينيّة والعلميّة (رئاسة الفتوى والإمامة والنظارة العلميّة بجامع الزيتونة) الى أن أدركته المنية في الثامن والعشرين من رمضان المعظم سنة 1266 (7 أوت 1850) إثر إصابته بوباء الكوليرا الذي اكتسح البلاد التونسية منذ شهر ديسمبر 1849 .

وقد دُفِنَ بزاويته الواقعة بمدينة تونس في الشارع الرابط بين نهج الباشا ونهج حوانيت عاشور ، والمعروف اليوم باسم « نهج سيدي ابراهيم الرياحي » .

وفي عهد المشير الثالث محمد الصادق باي (الذي تولى الملك من 1859 الى 1882) ، أذن وزيره الأكبر خير الدين باشا بترميم زاوية سيدي إبراهيم وتجديد قبّتها ، بعناية بعض العمّال المغاربة المختصّين في صناعة النقش على الجبس (أو نقش حديدة) . وقد أرّخ بناء القبة الجديدة البديعة الصنع الشيخ محمد بن عثمان السنوسي صاحب « مسامرات الظريف » ، بقصيدة يقول في مطلعها (18) :

[كامل]

لمقام إبراهيم فادخلُ آمنا	تجلو به فضلاً عظيماً كامنا
وأخلعُ حجابك بالتجرّد للذي	سوّاك من طين وردّك كائنا
وأخلص اليه من المناجاة الرّجا	وأركب بعزمك وأبتها لك صافنا

إلى إن يقول :

فيه أنجلي أمنٌ وعمّن ظاهر	فأسأل إلهك فيه تلف ميامنا
فهو الذي لمؤرّخيه جوابه :	لمقام إبراهيم فادخلُ آمنا

(1295 هـ / 1878 م)

حمّادي الساحلي

